المحاضرة الثامنة

د. غزوان الوردي –الاثنين – 2026/4/19

كان الجاحظ احد اهم علماء العربية في عصره وقد تلا عبدالحميد الكاتب وسهل بن هارون في ظهوره وربما كان لبعض الافكار والاسس النظرية التي اقرها ونظر لها اثراً في شهرته وعلو شأنه وسمو مكانته ومن ذلك مقولته المشهورة(المعاني مطروحة في الطريق).

يرى الجاحظ أنّ اللفظ كما لا ينبغى أن يكون عاميا وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا إلّا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فان الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى[1].

لقد اهتم الجاحظ بالألفاظ اهتماما عظيما أولاها عناية كبيرة، وقد دفعه هذا الاهتمام إلى أن يقول: " **والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء(الطلاوة)، وفى صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج، وجنس من التصوير**"[2].[حفظ]

وظن بعض الباحثين أنّه يميل إلى اللفظ كل الميل، وأنّه لا يرى للمعنى كبير أهمية، والواقع أنّه عنى باللفظ وأعطاه نصيبه من الاهتمام، وشغل بالمعنى والتصوير الأدبى الذى يقول عنه: " **فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير**"، وهذه نظريته التى شرحها عبد القاهر الجرجانى وسماها (نظرية النظم)، فالجاحظ اهتم بالألفاظ والمعانى والتصوير مع أنّه يروى أنّ بعضهم لا يحفل إلّا بالمعنى وحده كأبى عمرو الشيبانى الذى يرى أنّ المعنى متى كان رائعا حسنا ظل كذلك فى أية عبارة وضع. فالبيتان:

لا تحسبنّ الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال

كِلاهمـــا مـــوت ولكـــنّ ذا ... أفظع من ذاك لذل السـؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين ليست عليهما مسحة من جمال سوى الوزن، وعابه الجاحظ ورأى أنّه مسرف فى تقديرهما، وقال: " وأنا رأيت **أبا عمرو الشيبانى(ت:206هـ)** وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن فى المسجد يوم الجمعة أن كلّف رجلا حتى أحضره

---

[1] البيان والتبيين، الجاحظ، ، ج ١ ص ١٤٤.
[2] الحيوان، الجاحظ، ج ٣ ص ١٣١.

دواة وقرطاسا حتى كتبهما له، وأنا أزعم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا، ولولا أن أدخل فى الحكم بعض الفتك لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعرا أبدا"[3].

المتأثرين برأي الجاحظ :

عبد القاهر الجرجانى(ت: 471هـ):

لقد اهتم الجاحظ باللفظ ولكنه لم يهمل المعنى، ولذلك فليس صحيحا ما ذهب إليه بعضهم وهو أنّ الجاحظ كرّس جهوده لخدمة الألفاظ، ولأجله خاض **عبد القاهر الجرجانى(ت: 471هـ)**[4] غمار هذا الحِراك. ويرى الدكتور محمد مندور أنّ كل آراء **الجرجاني** حول مقولة وثنائية اللفظ والمعنى تنحصر فى مسألتين:

الأولى: إنكاره لما رآه الجاحظ من أهمية فصاحة الألفاظ باعتبار تلك الفصاحة صنعة فى اللفظ ذاته، ثم ثورته على مذهب أبى هلال العسكرى الذى يرد جودة الكلام إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.

الثانية: تعليقة جودة الكلام بخصائص فى النظم[5]:

وعبارة الجاحظ " فانما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"، وما نقله عبد القاهر من اهتمامه بالصياغة والصناعة، خير ما يفند هذا الرأى، لأنّ عبد القاهر سار على خطا الجاحظ ونقل مصطلحه فى التصوير وقال: "وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور فى كلام العرب، ويكفيك قول الجاحظ: وإنّما الشعر صناعة، وضرب من التصوير" [6].

فالجاحظ من أصحاب الصياغة ولذلك تسقط عنه تهمة الاهتمام بالشكلية والألفاظ، وإن كان كثير الاعتناء باللفظ واختيار ما يؤدى المعنى أداء حسنا، وهذه مهمة الأديب الذى يقدر قيمة الكلام ويبذل فى سبيله أعظم الجهود، وقد كان الجاحظ أديبا كبيرا وعالما قديرا، فعنى بالألفاظ كما عنى بالمعانى وكان له الفضل فى تصوير نظم الكلام.

---

[3] الحيوان، الجاحظ، ج ٣ ص ١٣١.

[4] **ابو عمرو اسحاق بن مرار الشيباني** نحوي وعالم لغة؛ عُدَّ من الثقات وروى الحديث وكان له اهتمام بالشعر حيث جمع أشعاراً لأكثر من ثمانين قبيلة ولد واستقر في الكوفة ثم انتقل بعدها الى بغداد وظل فيها حتى مماته، كان كوفي المذهب فيما يتعلق بالنحو وهو من اوائل نحاة الكوفى الذين ذهبوا الى البوادي لتعلم النطق السليم.

[5] فى الميزان الجديد، ص ١٤٩.

[6] دلائل الإعجاز، ص ٣٨٩.

ابن قتيبة(ت:276هـ):

كان ابن قتيبة عالما من علماء الكوفة ومؤرخاً وفقيهاً ومحدثاً ، وهو اقرب من تطرق الى هذه الثنائية (اللفظ / المعنى) متأثراً بالجاحظ ومؤيداً ومفسراً لمقولته، فقد تحدث ابن قتيبة (276 هـ) عن الألفاظ، وذكر أنّ الشعر أربعة أضرب:

أولاً: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول الشاعر:

فى كفه خيزران ريحه عبـق ... من كـف أروع فى عرنينـه شمم

يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فمـا يكلّـم إلا حيـن يبتسـم

وكقول أوس بن حجر:

أيّتها النفس أجملى جزعا ... إنّ الذين تحذرين قد وقعا

ثانياً: ضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى كقول القائل:

ولما قضينا من منى كلّ حاجـة ... ومسّـح بالأركـان مـن هـو ماسح

وشدّت على حدب المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغـادى الذى هو رائح

أخذنـا بأطـراف الأحاديـث بيننـا ... وسالـت بأعنـاق المطّـى الأباطـح

يقول ابن قتيبة: "هذه الألفاظ كما ترى أحسن شئ مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى، وجدته: ولمّا قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأباطح"، ونحوه قول الشاعر:

إنّ الذيـن غـدوا بلبك غادروا ... وشـلا بعينـك لا يـزال معينا

غيّضن من عبراتهنّ وقلن لى: ... ماذا لقيـت من الهوى ولقينا

ثالثاً: ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

رابعاً: ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى فى امرأة:

وفوهـا كأقـاحـى ... غـذاه دائــم الهطــل

كما شيب براح با ... رد من عســل النّحل

ولم يشر ابن قتيبة إلى لفظة "الفصاحة" فى كتابه "الشعر والشعراء" ولكنه استعمل كلمة "الألفاظ"، ويرى أنّ المحدث ليس له أن يتبع المتقدم فى استعمال وحشى الكلام ككثير من أبنية سيبويه، ولا أن يسلك فيما يقول الأساليب التى لا تصح فى الوزن ولا تحلو فى الأسماع. يقول:

"وهذا يكثر، وفيما ذكرت منه ما دلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروىّ وأسهل الألفاظ وأبعدها من التعقيد والاستكراه، وأقربها من أفهام العوام. وكذلك اختار للخطيب إذا خطب والكاتب إذا كتب فانه يقال: "أسير الشعر والكلام المطمع" يراد الذى يطمع فى مثله من سمعه وهو مكان النجم من يد المتناول"[7]

وفى كتاب ابن قتيبة **"أدب الكاتب"** حديث عن الألفاظ والأبنية، ولكنه لا يسميها "فصاحة" وإنما هى قواعد يستعين بها الكاتب. وعقد فى كتابه **"عيون الأخبار"** بابا سماه "كتاب العلم والبيان" تحدّث فيه عن الإعراب واللحن والتشادق والغريب والبيان والألفاظ التى تقع فى كتب الأمان والعهود والخطب. وهو فى هذه الأبواب والفصول ليس كالجاحظ الذى أرسى كثيرا من قواعد الفصاحة ووضع أمثلتها التى تتردد فى كتب البلاغة والنقد.

اهمية مقولة الجاحظ (المعاني مطروحة في الطريق)

إن مقولة الجاحظ الشهيرة "المعاني مطروحة في الطريق" تمثل حجر الزاوية في نظرية الأدب عند العرب، حيث عبّر من خلالها عن فلسفته في المفاضلة بين اللفظ والمعنى، مؤكداً أن الإبداع الحقيقي لا يكمن في ابتكار الفكرة المجردة، بل في كيفية صياغتها.

وهذا يتأتى من القيمة العالية للفظ العربي وللجملة العربية التي تقدست بأن اصبحت وعاءً دلاليا وجمالياً للنص المقدس وهو القرآن الكريم، وهذا يكمن في اسبقية الاختيار الإلهي للنبوة في زمن كانت اللغة غاية الافتتان الدلالي والاكتمال اللفظي ؛ ولاحقية الجمال البلاغي والدلالي للنص بعد نزوله على نبينا الكريم محمد (ﷺ).

أثر المقولة وانعكاسها في الوعي البلاغي والنقدي العربي بعد الجاحظ:

إن المعاني لدى الجاحظ هي معانٍ مشتركة: يرى الجاحظ أن الأفكار والمعاني الكلية (مثل الشجاعة، الكرم، الحزن، والحب والكره والصبر واليأس والبر والجحود.. وغيرها) هي ملك مشاع للجميع ولا يحتاج فهمها إلى عبقرية خاصة.

ويتركز التمايز بين الذين يتعاملون مع اللغة والذين يسعون الى تحقق جمالياتها بأقصى صورة ممكنة في "السبك"، فالجاحظ يرى أن الفضل يعود للأديب في "تنسيق" هذه المعاني داخل قالب لغوي محكم، فالشعر عنده "صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"

شيوع رؤية الجاحظ بأسبقية اللفظ، إذ فُهم من كلامه أنه يميل إلى تقديم اللفظ على المعنى، معتبراً أن الجمال الفني يتحقق بجودة الصياغة وليس بمجرد صحة المعنى

ووفق ذلك فقد تحققت ابعادٌ لتلك المقولة او النظرية الإشكالية وتتمثل بما يلي:

1- **البعد المعتزلي**: ترتبط نظرية الجاحظ بتجربته ورؤيته المعتزلية التي تعلي من شأن "البيان" والقدرة على التعبير الواضح كأداة للإقناع والحجاج والبرهان .

2- **البعد الجدلي** وحراك الثقافة والهوية الذي يتمثل بمواجهة الشعوبية: استخدم الجاحظ هذه الفلسفة للدفاع عن فصاحة العرب، موضحاً أن تميزهم ليس في الأفكار التي قد يتشابهون فيها مع الفرس أو اليونان، بل في قدرتهم البيانية الفائقة على صياغة تلك الأفكار.

3- **البعد العلمي** الذي اسس لوعي رصين تمخض عنه نشوء ما عرف لاحقاً بـ"نظرية النظم": فقد مهدت آراء الجاحظ الطريق لعبد القاهر الجرجاني لتطوير "نظرية النظم"، التي ركزت لاحقاً على العلاقات والروابط بين الألفاظ داخل السياق.

من اجتراحات الوعي النقدي بعد الجاحظ أنه وصل بعضهم الى **التوهم بالفصل**، يعتقد بعض الباحثين خطأً أن الجاحظ أهمل المعنى تماماً، بينما يرى آخرون أنه يقصد المعاني "البسيطة" المتاحة للجميع، أما المعاني "اللطيفة" والعميقة فهي تتطلب بياناً خاصاً.

كما أن هذه التجاذبات التي تحققها ثنائية اللفظ/ المعنى، شكلت ما يعرف بـ **مدرسة أنصار الشكل**، إذ أصبحت مقولته هذه منطلقاً لمدرسة نقدية ركزت على "الشكل" اللفظي، وسار على نهجه أدباء مثل أبو هلال العسكري.